مصطلح الأسطورة
والفكر النقدي

obeikandl.com

obeikandl.com

يبدو أن مصطلح الأسطورة لازال عصيا على التحديد على الرغم من جميع الاجتهادات العلمية المبذولة في هذا المجال ، حيث نلاحظ غموض المصطلح في النصوص النقدية التي عالجته في الخطاب النقدي المعاصر ، فقد تصبح الأسطورة تاريخا وخرافة ، وقد تتداخل مع الخيال الشعبي، والحكاية الشعبية، وقد تترادف والفكر الميثولوجي وعلم الأديان المقارن ، لكن يظل المصطلح مختلفا من بعيد أو قريب عن المصطلحات السابقة على الرغم من تقاطعه المتعدد معها، مما حدا بمرسيا إلياد إلى القول بصعوبة إيجاد تعريف محدد للأسطورة يقبله الجميع، وهذا يشير إلى التعقيد المتعدد الذي ينطوي عليه أي مصطلح من المصطلحات، فالمصطلحات ليست مجرد كلمات ذات معنى، بل هى سياقات معقدة كل التعقيد، تتمتع بالتعدد والجدل والتداخل، ومصطلح الأسطورة من أعرق المصطلحات تعددا وجدلا وتداخلا، فهو يتماس مع الفلسفة والانثربولوجيا الدينية، وتاريخ الأديان وعلم الاجتماع الدينى، فكل أسطورة تدخل التاريخ وتصير بعضا من صور الأزمنة الماضية، وتدخل الأشياء والكائنات وتظل منفصلة عنها في آن، وتتلون بلون الطقوس والتعاويذ والأغنيات الشعبية والطقوسية وتظل بمنأى عن الذوبان فيها، وترفل في أوشحة الأمكنة المقدسة، وتتلبس بجلال الأزمنة القديمة، وتفر متعالية فوق الأزمنة والأمكنة ، ثم تتوسد الأسطورة الشعر أو يتوسدها الشعر والفن عامة وتظل عالقة بأقواسه الزاهية الملونة، ولكنها تظل الأسطورة هى الأسطورة أيضا ولاتعنى شيئا سواها، وفي هذا السياق المشحون بالتداخل والجدل والتعقيد والتحول يصير البحث العلمي الجاد مرهقا، ويصير البحث عن المفاهيم الدقيقة الحاسمة لمصطلح الأسطورة عرضة للقلق الاصطلاحي، فكل عالم يجد في هذا المعين اللجي المتلاطم((الأسطورة)) بغيته، فيجد عالم الاجتماع في الأسطورة أثر السباق الاجتماعى من الأسرة إلى الجماعة إلى القبيلة فالأمة، وأثر هذه المؤسسات في إفرازات الأسطورة وأشكالها المتعددة...أما عالم النفس فالأسطورة تنبئه عن القوى المخبوءة في نفس الإنسان، إنها وثائق مسجلة عن أحلامه

الأولى وما تنطوى عليه من مخاوف وأفراح ودهشة وحيرة، إنها تترجم لاوعى الإنسان وطواياه الكامنة ، إلى رموز وصور الوعي من لغة وثقافة وأدب وفن))[١٣] ، ويجد فيها الباحث الأنثربوبوجى مظهرا من مظاهر التعبير الكلى عن الكون في شتى مظاهره وأحداثه ، فهى موقف نظري معرفي يتخلل نسيج الثقافة في شتى تجلياتها لدى الأمة الواحدة لو لدى كثير من الأمم ، وهى تمثل ذاكرة الشعوب الروحية والفكرية والفلسفية، فهي مكون أساسي من مكونات هويتها. كما رأى المؤرخ فيها وثيقة تحمل تاريخ البشرية الأولى ، وعصر الأبطال ممزوجا ببعض الخيال، واقروا بان هناك صلة وطيدة بين الحقائق التاريخية والأسطورية، كما رأى فيها الفلاسفة القلق الوجودي الأول للإنسان ولهفته الكبرى على أن يقدم أجوبة فلسفية عن قضاياه المصيرية الكبرى التى تؤرق مضجعه- ولعل هذا التداخل والتعدد والجدل المعقد السياقات الكامن في بنية الأسطورة هو ما حدا بمعظم مفكرينا بان يقدم تعريفا خاصا به للأسطورة ، فهو عند خلدون الشمعة يعنى((الأسطورة قصة متداولة أو خرافية ، تتعلق بكائن خارق أو حادثة غير عادية، سواء أكان أو لم يكن، لها أساس واقعي أو تفسير طبيعي... وتقدم الأسطورة تفسيرا للظاهرة الدينية أو فوق الطبيعة، كالآلهة والأبطال وقوى الطبيعة... والأسطورة بالمعنى الواسع الفضفاض للكلمة قصة مخترعة أو ملفقة))[١٤] وعند فاروق خور شيد في دراسته المنشورة في مجلة الدوحة القطرية((الأسطورة عن العرب)) هى((أسلوب يشرح معنى الحياة والوجود، وهى منطق يمتلئ بالعاطفة ويخلو من العلل والمسببات، والأسطورة مزيج من الدين والتاريخ والعلم والخيال والواقع، فكانت الفن الإنساني الأول الذى جعل الإنسان يعيش مع الجماعة بعلاقات حميمة أملا في تحقيق تكاثره وسيادته على عالم الطبيعة العجيب))[١٥] .

وقد طور الأستاذ فاروق خورشيد مفهومه السابق عن الأسطورة في كتابه الأخير عن ((أديب الأسطورة عند العرب)) فيقول عن تعريف الأسطورة أنها: ((كلمة يحوطها سحر خاص، يعطيها من الامتداد ما لايتوافر للكثير من الكلمات في

أي لغة من اللغات، إذ توحي بالامتداد عبر المكان والزمان توحي بالعطاء المجنح للعقل الإنساني وللوجدان الإنساني، توحي بالحلم حين يمتزج بالحقيقة وبالخبال وهو يثرى واقع الحياة بكل ما يغلفه ويطويه، وفي إسار من الوهم يخفيه ليخلق منه دنيا جديدة هى شعر الأحداث وتهويم الطموح الإنساني نحو المعرفة ونحو المجهول، والأسطورة هى محاولة الإنسان الأول في تفسير الكون تفسيرا قوليا ، والأسطورة هى دين بدائي والأسطورة هى الجزء القولى المصاحب للشعائر الدينية والممارسة بالرقص أو الحركة في الأديان البدائية الأولى، والأسطورة هى محاولة لتفسير ظواهر الوجود وربط الإنسان بها))[١٦] ، وهى عند شوقي عبد الحكيم تعنى((قصة ((فابيولا)) أو معتقدات الناس بإزاء القوى العليا السماوية ، آلهتهم وأنصاف آلهتهم ، أبطالهم وخوارقهم وكذا معتقداتهم الدينية))[١٧] ، وهى عند فراس السواح:((حكاية مقدسة يلعب أدوارها الآلهة وأنصاف الآلهة ، أحداثها ليست مصنوعة أو متخيلة، بل وقائع حصلت في الأزمنة الأولى المقدسة، إنها سجل أفعال الآلهة، تلك الأفعال التي أخرجت الكون من لجة العناء ووطدت نظام كل شيء قائم ووضعت صيغة أولى لكل الأمور الجارية في عالم البشر ، فهي معتقد راسخ، الكفر به فقدان لكل القيم التى تشده إلى جماعته وثقافته، وفقدان المعنى في هذه الحياة، إنها حكاية مقدسة تقليدية بمعنى أنها تتنقل من جيل إلى جيل، بالرواية الشفهية، مما يجعلها ذاكرة الجماعة))[١٨] ، وعند محمد عبد المعين هى((الدين والتاريخ والفلسفة جميعا عند القدماء، وهى ليست فكرة مبتدئة أوخاطئة ، بل إنها فكرة بدوية تاريخية صبغت بصبغة الإطناب والمغالاة، لإظهار أهمية تلك الحادثة الحقيقية في جيل زال أثره من ذهن الناس، والناس بالطبع يكبرون الشيء الصغير لإظهار عظمة الجيل السالف))[١٩] ، أما الدكتور محمد عجينة فيرى الأسطورة ((خطاب الجد والحقيقة والقداسة، وأنها حكاية تقص قصة بفضل شكلها السردي ، وهى نظام سيميائى ثان ، ونظام من أنظمة التعبير عماده اللغة الطبيعية، غير أنه يمثل دليلا من الدرجة الثانية، معنى ذلك أن الأسطورة تتألف من نظام دال

موجود سلفا هو نظام اللغة - حسب تعريف الألسنية - والمدلول منها أقل ارتباطا بداله من ارتباط الدال بالمدلول في مجرى الكلام العادي))[٢٠] .

وربما قصدنا إلى إيراد هذه التعريفات الكثيرة التى بلغت في اختلافها حد الأسطورة نفسها، فقد قصدنا إلى شيء من اكتشاف بعض وجوه الاضطراب في المصطلح ، فبينما تأتى الأسطورة عند شوقي عبد الحكيم مفسرة معتقدات الناس فهي عن فراس السواح تعنى هذه المعتقدات نفسها، وهى تعنى عند عبد المعين خصائص الدين والتاريخ والفلسفة، بينما تعنى عند محمد عجينة لغة ثانية دواله أعمق فيضا من دوال اللغة العادية، بما يذكرنا بتفرقة سوسير الشهيرة بين اللغة والكلام ، وهذا الاضطراب والتناقض في المصطلح والتعدد الذى يصل إلى درجة التميع نرى الفكر العربي المعاصر جعل من الأسطورة كل شيء، ونفى عنها في الوقت ذاته كل شيء، فهى موضوعا أنطولوجيا تارة وموضوعا أنثربولوجيا أخرى ، وأبستمولوجيا مرة ثالثة ، وسيميولوجيا مرة أخيرة، وهذا التعدد والاضطراب في تحديد مصطلح الأسطورة يذكرنا بمقولة القديس أوغسطين عندما سئل عن معنى الأسطورة فقال((إنني أعرف ما هى الأسطورة بشرط أن لاتسألنى عنها، ولكن إذا ما سئلت وأردت الجواب، فسوف يعترينى التلكؤ))[٢١] ، وقد عانى بعضا مما أشار إليه القديس أوغسطين فريدرش فون دير لاين عندما تساءل((أين يقع الاختلاف بين الحكاية الخرافية وأسطورة الآلهة؟؟ ويضيف قائلا: إن هناك احتمال فحواه أن أسطورة الآلهة أو الحكاية الخرافية، لم تكونا في الأصل منفصلتين إحداهما عن الأخرى انفصالا تاما فكلاهما هاش في عالم مشابه هو العالم السحرى))[٢٢] ، ولعل هذا الاختلاط الذى أشار إليه ديرلاين قد أشار إليه أيضا فوزي العنتيل قائلا: ((إن الحد الفاصل بين الأسطورة وحكاية الخوارق مبهم في الغالب وما تزال مشكلة الفصل بينهما قائمة))[٢٣] ، بينما الدكتور أحمد زكى سليم يمزج بينهما قائلا: ((بوجود تلازم بين الأساطير والحكايات الخرافية))[٢٤] ، لكن ياسين النصير يرى ((أن الأدب القصصي المثولوجى وغير المثولوجى هو ثمرة

المخيلة الجماعية الشعبية))[٢٥] ، إن مارآه العنتيل غامضا رآه أحمد زكى متكاملا، بينما نصير لايرى هذا ولاهذاك ، بل يحدد التعريف بالتاريخ وليس بمكوناته الداخلية الخاصة به .

إن القلق المصطلحي الظاهر في التعريفات السابقة يرجع إلى أسباب منهجية ومعرفية وحضارية معقدة أظهرها يتمثل فيما نرى في عدم قدرة معظم الدارسين السابقين على الوقوف على حقيقة المصطلح في ذاته بعيدا عن تداخلاته المعقدة مع نظائره من الخرافة والحكاية الشعبية والفلكلور والحكايات الطقسية، وهذا ما ألمح إليه نذير العظمة في أن الأسطورة تمثل ((نسقا وبنية متميزة تقتضى منا أن ندرك عناصرها الأولية، ومركباتها المبدئية، لكي نفهمها ونضع أيدينا على أهميتها، وليفى شتراوس يرى أننا لا نفهم الأسطورة فهما صحيحا إلا إذا أخذنا في الاعتبار أشكالها أو رواياتها العديدة، فنشأتها، فتفرعها في البيئة الواحدة، واختراقها للبيئات المتعددة، أي نتتبعها في نسيج المبدع، والوسط الاجتماعي، والعالم الحضاري.... ماذا تقول الأسطورة؟! ماذا تقول الأسطورة للسياق؟؟ وماذا تقول الأسطورة للأسطورة؟؟ هذه الأسئلة الثلاثة ينبغي أن تكون خطتنا للولوج إلى عالم الأسطورة، هذا إذا لم نصنف ما قالته الأسطورة إلى ما لم تقله حتى تتبين لنا الصورة في إطار الصورة.

ومن هنا يشير د . نذير العظمة بناء على تصور شتراوس في دراسته عن " العنقاء الألسنية أو الأسطورة وعلم الأناسة البنيوي إلى أن:((كل أسطورة بنية، وكل بنية تتألف من نواة وكل نواة تتألف من نويات ، فالأسطورة نص ، والنص مادة مركبة، ما علينا لنفهمها حق الفهم إلا أن نشرحها إلى عناصرها الأولى، وإذا تمكنا من أسطورة مخصوصة منهجيا أي سيطرنا عليها نستطيع عندئذ أن نتمكن من كل الأساطير ونسيطر عليها من خلال منهج علمي موثوق ، لا انطباعات جزئية متفرقة))[٢٦] ، وهذا يدخلنا إلى مجال علمي صعب يتمثل في : المعيار الأسطوري العام

الذي نريد أن نثبته في المعجم الأسطوري العربي العام حتى يتم للإبداع الشعري الأسطوري العدول عنه. كيف نثبت معيارا أسطوريا كليا حتى نضبط المفهوم الجمالي للانزياح الأسطوري في الفنون العربية المعاصرة كافة ؟! ربما تكون الاجابه حول هذه الأسئلة الصعبة تحتاج إلى جهود نقدية متعددة ليس مكانها هنا. ولكن يجب الاشاره هنا إلى أن أسطورة النسر في موروثنا اللغوي والفلكلوري والتاريخي والعجائبي والمعرفي والجمالي لن تكتمل إلا بما اقترحه((شتراوس من شروط لاكتمال نص الأسطورة في توفر الأسس التالية لبنية أي أسطورة:

١- شفرة اللغة .

٢- شفرة الأسطورة .

٣- شفرة اللاوعي الجمعي المستودع في ذاكرة الأفراد والجماعة.))[٢٧] .

لقد حاول معظم الباحثين السابقين تعريف الأسطورة من مواقع فكرية و نفسية و أنثربولوجية وشعبية كانت جميعها من خارج البنية الداخلية للأسطورة نفسها، ومن هنا فهذه الدراسات على الرغم من جديتها الظاهرة لا تقع على المصطلح في ذاته، علاوة على أنها غير متكاملة أو متسقة في صورة بنائية تطورية، بل مضطربة متناثرة تفتقد التماسك النظري من جهة، والإجراء النقدي التطبيقي من جهة أخرى، ومن هنا وقع هذا الاضطراب الاصطلاحي للأسطورة، وما أشد حاجتنا إلى ((علم ميثولوجيا)) عربي مستقل قائم بذاته، تكون له مادته العلمية المحددة، ومنهجه العلمي المستقل، وخطواته الإجرائية العملية التى تساعد الباحث في إجراءاته النقدية التطبيقية، وتيسر له سبل رؤية الواضحة للمصطلح النقدي والإبداعي معا من موقعهما العلمي المحدد المستقل الذى يدفع بالناقد إلى اعتبار الأسطورة نوعا من المعجم اللغوي المتسق في وعى العربي ولا وعيه على السواء، والذى يمثل معيارا لغويا عاما يمكن الشعر

والشاعر من الانزياح عنه، وبالطبع سيكون معيار مصطلح الانزياح الأسطوري هنا أكثر دقة وانضباطا لو وفرنا للعقل العربي المعاصر علما أناسيا للأسطورة بوصفها منظومة أسلوبية متسقة مع ذاتها.بحيث يملك الشعر العربي القدرة على معالجة الرموز الأسطورية معالجة جمالية تنقل وعى النص الشعري نفسه من النص الأسطوري إلى أسطورة النص الشعري نفسه، حتى ينتقل الوعي الشعري الأسطوري من سرد أحداث الحياة إلى خلق أحداث الفن، ومن المرجعيات المعرفية والروحية إلى التشكيلات الجمالية النصية، ومن هندسة الميراث المعجمي الأسطوري إلى هندسة الأبنية النصية الخلاقة.

obeikandl.com